تتقدم قضيةَ اللفظ والمعنى قضايا النقد العربي القديم، إذ تحتل مكانة مميزة بينها لما تثيره من إشكالات، وكذلك بسبب كثرة الآراء فيها وارتباطها بالدراسات القرآنية، لذلك فهي من أبرز القضايا التي شغلت النقَّاد العرب.

وقبل الحديث عن موقف النقاد من القضية، يجدر بنا أولا الوقوف على بعض المفاهيم اللغوية والاصطلاحية لكل من اللفظ والمعنى.

اللَّفْظُ والمعنى في اللغة :

جاء في لسان العرب: "لفظ: اللَّفْظُ: أَن تَرْمِي بِشَيْءٍ كَانَ فِي فِيكَ، والفِعلُ لَفَظ الشيءَ، يُقَالُ: لفَظْتُ الشَّيْءَ مِنْ فَمِي أَلفِظُه لَفْظًا: رَمَيْتُهُ ...ولفظ بالشيء يلفظ لفظا تكلم...واللفظ واحد الألفاظ".[1]

وجاء في كتاب (التعريفات) أن اللفظ: "ما يتلفّظ به الإنسان – أو مَن في حكمه ..."[2]

وعرّف " المعنى " بأنّه : "ما يقصد بشيء ".[3]

وقال ابن فارس أنّ ""لفظ": اللام والفاء والظاء كلمة صحيحة، تدلّ على طرح الشيء، وغالب ذلك أن يكون من الفم. تقول: لفظ بالكلام يلفظُ لفظًا، ولفظتُ الشيء من فمي...، وهو شيء ملفوظ ولفيظ".[4]

والمعنى القصد والانتهاء، جاء عن قدامة بن جعفر قوله: "جماع الوصف لذلك ان يكون المعنى مواجها للغرض المقصود غير عادل عن الأمر المطلوب...".[5]

قضية اللفظ والمعنى:

يلخص قول مصطفى عبدالرحمن إبراهيم صراع النقاد حول هذه القضية فيقول :

"إنّنا نجد منهم مَن يردُّ أهمَ مقوّمات العمل الأدبي، وأقوى دعائِم نجاحه إلى المعنى، مقللًا من شأن اللفظ في ذلك، ومنهم مَن يردها إلى اللفظ، ومنهم من يسوي بينهما".[1]

---

[1] ابن منظور، لسان العرب. مج 7، ص: 561، مادة : لفظ.

[2] – الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983، ص: 161، مادة (لفظ).

[3] – المصدر نفسه، ص: 185، مادة (معنى).

4– ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الفكر 1979، ج5 ،ص259. علي محمد حسن العماري، قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية إلى عهد السكاكي (555–626هـ)، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط1، 1420هـ، 1999م، ص: 35.

[5] – قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص: 17.

وقد ارتبطت هذه القضية بعلماء الكلام الذين حملوا على عاتقهم مسألة دراسة القرآن الكريم وتبيان إعجازه، كما راجت عند علماء اللغة ولكن أكبر اهتمامهم كان مصوّبا ناحية اللفظ بالإضافة إلى أنها كانت من اختصاص البلاغيين، ولكنها ارتبطت تحديدا بالجاحظ إذ يعده الدارسون أول من أثار هذه القضية بطرحها للنقاش النقدي بعد مقولته الشهيرة في موضوع المعاني، وبعده صار للقضية شأن فذكرها ابن قتيبة وقدامة بن جعفر وابن رشيق وغيرهم كثير.

وبذلك فقد تعاقبت أجيال من النقاد على دراسة القضية، وهذه الآن مجمل آراء الجاحظ وابن قتيبة وابن طباطبا وقدامة بن جعفر.

أولا/ موقف الجاحظ:

يعد الجاحظ على رأس الطائفة الأولى من النقاد الذين آثروا اللفظ على المعنى في مقولته المشهورة: "والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك".[2]

فالجاحظ هنا صريح في تفضيله للجانب الشكلي المتمثل في الوزن واللفظ والصياغة على المضمون، غير أن هذا القول لا يعكس موقف الرجل من القضية، ومن يقرأ باقي آرائه في البيان والتبيين أو الحيوان يقف على حقيقة مغايرة، وهي أن الجاحظ لا يبخس المعنى حقه من الأهمية، ومن يتخيل أنه يقف لجانب اللفظ يكون قد اغفل النظر لباقي أقواله، فالجاحظ يلح على أهمية المشاكلة بين اللفظ والمعنى، ويصرح بأن اللفظ والمعنى لا غنى عنهما في صناعة نسيج القول وبديع التصوير.

وفي الإطار نفسه يرى الجاحظ ألا قيمة للمعنى بدون لفظ، فحياة المعنى ونشاطه متعلقة باللفظ، وفي ذلك يقول : "المعاني القائمة في صدور الناس، المتصورة في أذهانهم، والمتخلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير

---

[1]– مصطفى عبدالرحمن إبراهيم، في النقد الأدبي القديم عند العرب، ص196.

[2] – الجاحظ، الحيوان، ج3، 131، 132.

صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ومعنى شريكه، والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره، وإنما يحي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها ... وعلى قدر وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل يكون إظهار المعنى، كلما كانت الدلالة أوضح و أفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور كان أنفع وأنجع".[1]

وإذا كان الجاحظ قد نادى بأفضلية اللفظ على المعنى إلا أننا بالمقابل نجد له نصوصا أخرى تدل على أنه يميل إلى التوفيق بين اللفظ والمعنى، وأن جمال نسيج النص وإحكامه يتوقف على ذلك ويتحقق بحسن اختيار اللفظ والمعنى معا كما يعبّر عنه قوله: " ومتى شاكل — أبقاك الله — اللفظ معناه، وكان لذلك الحال وفقًا، ولذلك القدر لَفْقًا، وخرج من سماجة الاستكراه، وسلم من فساد التكلف؛ كان قمنًا بحسن الموقع، وحقيقًا بانتفاع المستمع، وجديرًا أن يمنع صاحبه من تأوُّل الطاعنين، ويحمي عرضه من اعتراض العائبين، ولا تزال القلوب به معمورة، والصدور به مأهولة.

ومتى كان اللفظ أيضًا كريمًا في نفسه، متخيَّرًا من جنسه، وكان سليمًا من الفضول، بريئًا من التعقيد، حُبِّبَ إلى النفوس، واتصل بالأذهان، والْتحم بالعقول، وهشت له الأسماع، وارتاحت له القلوب، وخف على ألسن الرواة، وشاع في الآفاق ذكره، وعظم في الناس خطره، وصار ذلك مادة للعالِم الرئيس، ورياضة للمتعلم الريض. ومن أعاره من معرفته نصيبًا، وأفرغ عليه من محبته ذَنوبًا، خبت إليه المعاني، وسلس له نِظَام اللفظ، وكان قد أغنى المستمع عن كد التكلف، وأراح قارئ الكتاب من علاج التفهم".[2]

لذلك نجده يطالب الشعراء بتجويد الصياغة لأن الشعر تصوير وصياغة جيدة وسبك محكم للفظ.[3] ولذلك فإن الجاحظ بهذا الموقف المزدوج قد فتح بابا واسعا للنقاش بين

---

[1] – الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 75، 76.

[2] المصدر نفسه، ج2، ص: 7، 8.

[3] – ينظر: الجاحظ، الحيوان، ج3، ص: 131، 132.

الدارسين على مر العصور حول حقيقة مذهبه، وحقيقة عبارته '"المعاني مطروحة في الطريق".[1]

وما دامت الصياغة هي المراد عنده فقد حف اللفظ والمعنى بشروط وتتمثل في تجنب الساقط الوحشي والغريب والاقتصار على المتداول المعروف خدمة للإبلاغ وتأدية للفهم،[2] واشترط في المعاني الوضوح واليسر على الفهم.

ولا يتوقف الجاحظ على التذكير بأهمية المزاوجة بين اللفظ والمعنى والملاءمة بين المبنى والفكرة بما يدل على أنه ينتصر للصياغة الجميلة والصورة التي لا ينفصل فيها الشكل عن المحتوى. يقول الجاحظ: "أنذركم حسن الألفاظ، وحلاوة مخارج الكلام، فإن المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا وأعاره البليغ مخرجا سهلا، ومنحه المتكلم دلا متعشقا، صار في قلبك أحلى، ولصدرك أملا. والمعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة، وألبست الأوصاف الرفيعة، تحولت في العيون عن مقادير صورها، وأربت على حقائق أقدارها، بقدر ما زينت، وحسب ما زخرفت. فقد صارت الألفاظ في معاني المعارض ، وصارت المعاني في معنى الجواري. والقلب ضعيف، وسلطان الهوى قوي، ومدخل خدع الشيطان خفي".[3] بهذه الصورة يعبر الجاحظ عن موقف جديد غير الذي تعكسه عبارته "المعاني مطروحة في الطريق"، لأن هذه المعاني حسبه تحتاج لمن يخرجها المخرج الذي يليق بها فتكون صورة لجوهر يراعي خصوصية ويوجِد التفاوت بينها، لأنه كما يتفاوت اللفظ يتفاوت المعنى، فمنها الكريم الشريف، ومنها السخيف، ويتوقف استخدامها على فطنة الأديب وخبرته.[4] وهذا يدل دلالة قاطعة على أنه لم ينظر إلى اللفظ مجردا من المعنى ولم يفصل بين هذا وذاك، "ولكنه نظر إلى الصياغة التعبيرية ورأى أن جمال هذه الصياغة لا يتحقق إلا بحسن اختيار الالفاظ وحسن انتظامها في النسق التنظيمي، معتقدا أن ذلك

---

[1] – ينظر: بدوي طبانة، دراسات في نقد الأدب العربي ن الجاهلية إلى القرن الثالث، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط4، 1975م، ص: 178. حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص:272، 275. محمد غنيمي هلا، النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، مصر، 1997م، ص: 253.

[2] – ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 272، 274.

[3] – المصدر نفسه، ج1، ص: 272، 274.

[4] – ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص: 136.

سيؤدي لا محالة إلى كشف المعنى".[1] ما يعني أن في كلام الجاحظ عن اللفظ والمعنى وموقفه منهما لا تكشفه إلا قراءة كتبه مجتمعة: (البيان والتبيين) و(الحيوان) و(رسائله).

2/ موقف ابن قتيبة (ت276هـ):

ورد رأي ابن قتيبة من الثنائية في كتابه (الشعر والشعراء) في موقف تمييزه بين أضرب الشعر الأربعة وهي[2]:

1 – ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه، كقول أوس بن حجر[3]:

أيتها النفس أجملي جزعا***إن الذي تحذرين قد وقعا

2 – ضرب منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هنا فائدة في المعنى، كقول القائل[4]:

ولما قضينا من منى كل حاجة***ومسّح بالأركان من هو ماسح وشدت

على حدب المهاري رحالنا***ولا ينظر الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الحديث بيننا***وسالت بأعناق المطي الأباطح

3– ضرب منه جاد معناه، وقصرت ألفاظه عنه، كقول لبيد بن ربيعة[5]: ما

عاتب المرء الكريم كنفسه***والمرء يصلحه الجليس الصالح

4 – وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه، كقول الأعشى[6]:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني***شاوٍ مشلٌّ شلولٌ شلشلٌ شولُ

---

[1] عثمان موافي، الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم تاريخها وقضاياها، دار المعرفة الجامعية، مصر، ط3، 2000، ص: 163.

[2] ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج1، ص: 64.

[3]– المصدر نفسه، ص: 65.

[4]– المصدر نفسه، ص: 66.

[5]– المصدر نفسه، ص: 68.

[6]– المصدر نفسه، ص: 71.

غير أن ابن قتيبة لم يتعمق في تحليل العلاقة بين الشقين، وكأن همه كان تمييز أنواع الشعر والإشارة إلى أثر اللفظ والمعنى في تحديد ذلك. يقول عثمان موافي: "ويبدو أنه كان يهدف من وراء هذا التقسيم العقلي، إلى التأكيد على الناحية الفنية في الشعر، وهي أن جودته الفنية لا تتحقق باللفظ وحده ولا بالمعنى وحده، وإنما بائتلاف هذا إلى ذاك أي المعنى إلى اللفظ".[1]

ومن خلال هذه الأقسام يتضح أن ابن قتيبة يقسم الشعر إلى لفظ ومعنى، كما ذهب إلى أن الحسن أو الرداءة كما تكون في كليهما، قد تكون في أحدهما. فهذا التقسيم لا يجعل المزية لعنصر دون آخر فكل طرف يؤثر على الآخر جودة أو رداءة، وبالتالي كان أجود الشعر ما استقام شكله مع فكرته.

3- موقف ابن طباطبا العلوي (ت 322 هـ):

نظر ابن طباطبا للشعر نظرة ذوقية حين جعل صحة المعنى والوزن وعذوبة اللفظ عيار الشعر الجيد، قال في ذلك: "هناك أشعار باردة المعنى، أبرزت في أحسن معرض وأبهى كسوة وأرق نسيج". وأما العلاقة بين اللفظ والمعنى فهي كعلاقة الجسد بالروح وفي ذلك يقول: "والكلام الذي لا معنى له كالجسد الذي لا روح فيه، كما قال بعض الحكماء: الكلام جسد وروح، فجسده النطق وروحه معناه".

4/ موقف قدامة بن جعفر (ت337هـ):

يظهر تأثر ابن قتيبة بمسألة اللفظ والمعنى في حديثه عن مظاهر الجودة وكذا الرداءة التي قد تصيب الشعر من جانب لفظه أو من جانب معناه، ما يعني أنه نظر نظرة ثنائية للشعر. فقد حدد قدامة في كتابه (نقد الشعر) معايير وشروط اللفظ، كما حدد نعوت المعاني وعيوبها، وذكر ائتلاف اللفظ مع المعنى العملَ الأدبي يجب أن يتميَّز بالمساواة

---

[1]- عثمان موافي، الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم تاريخها وقضاياها، ص: 47.

بين اللفظ والمعنى ويتمّ ذلك بائتلافِ عناصرهِ النصيةِ؛ حيث يقول :"أن يكون سمحا سهل مخارج الحروف من مواضعها عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة...".[1]
وقال محددا شروطه أيضا: "وهو أن يكون اللفظُ مساويًا للمعنى، حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، وهذه هي البلاغة التي وصف بها بعض الكتاب رجلًا، فقال: كانت ألفاظُه قوالبَ لمعانِيهِ؛ أي هي مساويةٌ لها لا يفضُلُ أحدُهُما على الآخر".[2]

ومن عيوب اللفظ التي ذكرها: "أن يكون ملحونا وجاريا على غير سبيل الإعراب واللغة، وأن يرتكب الشاعر فيه ما ليس يستعمل ولا يتكلم به إلا شاذا وذلك هو الحوشي الذي مدح عمر ابن الخطاب زهيرا بمجانبته له وتنكبه إياه فقال: كان لا يتبع حوشي الكلام".

وعن ائتلاف اللفظ والمعنى استخلص قدامة أنواعا منه هي:

المساواة: وهو أن يكون اللفظ مساويا للمعنى، فلا يزيد عنه ولا ينقص، وتلك هي البلاغة حسبه.[3]

الإشارة: وهو أن يشتمل اللفظ القليل على المعنى الكثير بالإيماء إليها أو التلميح.[4]

الإرداف: وهو أن يأتي الشعار للدلالة على معنى من المعنى بلفظ دال على معنى هو ردفه وتابع له.[5]

التمثيل: وهو أن يريد الشاعر إشارة إلى معنى، فيضع كلاما دالا على معنى آخر، وهذا المعنى والكلام ينبئان عما أراد الشاعر الإشارة له.[6]
وذكر أن المعنى هو بلوغ القصد وجعل شروطه: صحة التقسيم، صحة المقابلة، صحة التفسير، التتميم، المبالغة، التكافؤ، الالتفات.[1]

---

[1] – قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص: 8.
[2] – المصدر نفسه، ص: 55.
[3] – المصدر نفسه، ص: 55.
[4] – ينظر: المصدر نفسه، ص ص: 56.
[5] – ينظر: المصدر نفسه، ص ص: 57.
[6] – ينظر: قدامة بن جعفر، ص ص: 60.

وعيوب اللفظ اللحن والخروج عن سبيل اللغة والإعراب والمعاضلة.[2]

[1] – ينظر: قدامة بن جعفر، ص ص: 46، 54.

[2] – ينظر: قدامة بن جعفر، ص ص: 65، 66.